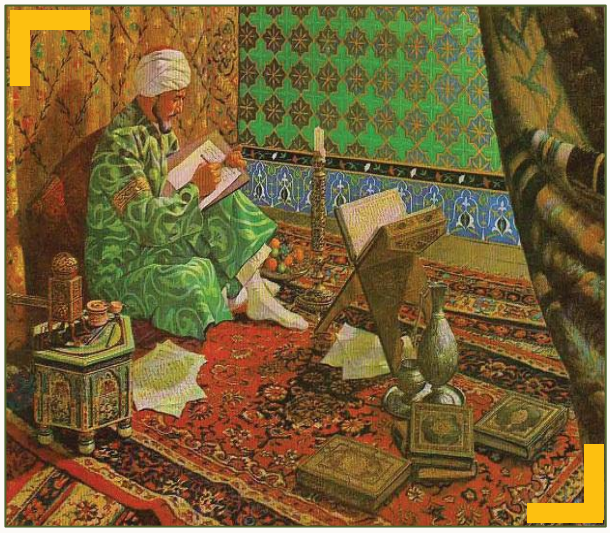

علماء منطقة توات وتأثيرهم في السودان الغربي "خلا القرن ١٢ هـ/ ١٨م"

مبارك جعفري

أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر
المركز الجامعي – وادي سوف
ولاية وادي سوف – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مبارك جعفري، علماء منطقة توات وتأثيرهم في السودان الغربي خلال القرن ١٢هـ / ١٨م- دورية كان التاريخية- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٩٠ – ٩٦.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخص

تقع منطقة توات حاليًا بالجنوب الغربي للجزائر، وهي تشكل ولاية أدرار وجزء من ولاية تمنراست، وقد عُرفت منطقة توات على مر التاريخ بأنها أرض أمان واطمئنان، وهو ما كان عاملاً أساسيًا في توافد عدد كبير من العلماء إليها من كافة الأقطار العربية والإسلامية. ومع مرور الأيام ازداد التواصل وتوسع وتأثر الأفارقة بعلماء وعلوم التواتيين وانكبوا على كثير من مؤلفاتهم ينسخونها ويدرسونها وحتى شارحين لها. وتسلط صفحات المقال الضوء على علماء منطقة توات وتأثيرهم في السودان الغربي، من خلال تنقلهم لإفريقيا خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي.

مُقدّمة

يقع إقليم توات في الجنوب الغربي للجزائر, ويضم ثلاث مناطق أساسية هي: تينجورارين, توات الوسطى, تيدكلت[١]. اختلف الرواة والمؤرخون في أصل التسمية ومعناها لعل من أهمها: ما ذكره عبد الرحمان السعدي؛[٢] من أنها اسم لمرض أصاب أصحاب السلطان المالي كنكن موسى[٣] في طريقهم إلى الحج, والبعض يرى أنها اسم لأحد القبائل الصحراوية بالجنوب.[٤] والبعض يرى أنها جاءت من الأتوات وهي الفاكهة التي كان يدفعها السكان لملك الموحدين بدل الضرائب.[٥] وهناك مَن يرى أنها سميت بذلك لأنها تواتي للعبادة, ولهذا سكنها الكثير من الأولياء والصالحين.[٦] ويرى ماندوفيل (Mandeville) أن اسم توات أطلقه الطوارق والعرب على الواحات المنتشرة على ضفاف واد الساورة وواد مسعود،[٧] بينما يرى (روكليس . Reclus) أن توات اسم بربري يعني الواحات[٨] ...إلخ من الروايات التي لم تستطع أي منها أن تحق الجزم، رغم أني أميل للأصول البربرية للأسم كون البربر من الملثمين، وزناته هم أول مَن سكن الإقليم، وكذلك كون معظم أسماء القصور بربرية.

لا تختلف بيئة الإقليم عن البيئة الصحراوية عامةً من حيث التضاريس ومعلمها كالعروق وأهمها العرق الغربي الكبير, والرق الذي يشغل مساحات واسعة من الإقليم, والشطوط والسباخ وأهمها سبخة (مكرغان) جنوب اقبلي, وسبخة تينجورارين. أما المناخ فهو صحراوي جاف يتميز بالحرارة الشديدة في فصل الصيف, تصل إلى خمسين درجة مئوية, والبرودة في فصل الشتاء, مع جفاف طوال أيام السنة, والرياح القوية خاصة في فصل الربيع والصيف.[٩]

تعود عمارة المنطقة إلى عصور ما قبل التاريخ وهو ما تدل عليه الآثار والشواهد كما استخدم الرومان طريق توات في علاقاتهم مع جنوب الصحراء[١٠] ويرى برنارد سافرو (Bernard Saffroy) أن اليهود وصلوا إلى توات منذ حوالي خمسين سنة قبل الميلاد واستقروا هناك،[١١] وبعد دخول الإسلام إلى شمال أفريقيا لعب الإقليم دورًا أساسيًا في العلاقة بين دول ومماليك المغرب الإسلامي والسودان الغربي، وخاصةً بعد سقوط مملكة غانا وما نتج عنه من تراجع للطريق التجاري الصحراوي الغربي الرابط بين مراكش وغانا

ليحل محله طريق توات كأحد أهم الطرق التجارية الصحراوية، مما زاد في أهمية المنطقة وعمارتها.[١٢]

وبحكم موقعها الإستراتيجي وكونها مركز عبور وسط الصحراء لعبت توات دورًا رياديًا عبر مختلف العصور في ربط السودان الغربي بمختلف المراكز الحضارية في الشمال, وكانت رفقة الحواضر الصحراوية طريق الاتصال الوحيد إلى غاية أزمنة متأخرة, وهو ما أشار إليه الكثير من الجغرافيين والرحالة, وفي مقدمتهم الإصطخري بقوله عن بلاد السودان: "... وليس لها اتصال بشيء من المماليك والعمارات إلا من وجه المغرب لصعوبة المسالك بينها وبين سائر الأمم..."[١٣].

إن العلاقة بين توات وأفريقيا الغربية ليست وليدة الأمس, بل تمتد عبر العصور في عطاء حضاري متبادل كان الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في القرن التاسع الهجري ركيزته الأولى, وصاحب الفضل في إعطائه بعدًا وزخماً كبيرين لدوره وصيته وحركته الإصلاحية في ربوع أفريقيا, وبرحيله لم تتوقف وشائج الاتصال بل استمرت وبوتيرة أسرع أحيانًا, لتعرف أوجها خلال القرن ١٢ هـ/١٨م بفضل الازدهار العلمي والحضاري الذي عرفه الإقليم، وتنقل علمائه الدائم نحو السودان الغربي, هذا التنقل الذي ساهمت في تعزيزه مجموعة من العوامل يمكن ذكرها فيما يلي:

القوافل التجارية

شكلت التجارة إحدى وسائل الاتصال المثمرة بين توات وأفريقيا, وفي توات كانت تجتمع القوافل من الشمال مع القوافل القادمة من بلاد السودان[١٤] بوصفها نقطة عبور وممر رئيسي لهاته القوافل, خاصةً بعد تراجع مكانة الطريق الغربي الرابط بين سجلماسة . ولاتا . غاو نتيجة للاضطرابات السياسية, وانتشار قطاع الطرق وظهور الأوربيين على السواحل, مما أدى إلى تدحرج التجارة شرقًا نحو طريق توات الذي أصبح الأهم خاصة مع ازدهار مملكة سنغاي،[١٥] وأدرك الأوربيون هذه الأهمية مبكرًا لأنها كانت تمثل الطريق للوصول إلى ذهب السودان, ولهذا الغرض كان مجيء التاجر الجنوي (أنطونيو مالفانتي . Antonio Malfante) إلى تمنطيط سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٧م للتعرف أكثر على المنطقة وطرقها التجارية[١٦] أين كانت تجتمع القوافل القادمة من الشمال لتنطلق جنوبًا.

وكانت القوافل عادةً ما تكون محملة بالكتب والمخطوطات بعدما راجت تجارتها في ذلك العصر بفضل ما كانت تدره من أرباح تفوق بكثير أرباح السلع الأخرى،[١٧] بالإضافة إلى تجار توات المحليين الذين كانت تجارة غالبيتهم مع السودان الغربي،[١٨] مع تمتعهم بثقافة علمية واسعة أهلتهم للقيام بدور علمي إلى جانب نشاطهم التجاري, أو ما يُعرف بظاهرة الفقهاء التجار الذين أثروا العمل بالتجارة على التدريس والقضاء لبركتها ولما كانت توفره لأصحابها من مكاسب, أو هروبًا من تولي منصب القضاء, لكن دون انقطاع عن نشاطهم العلمي الذي واصلوا ممارسته انطلاقًا من التجارة, وفاق تأثيرهم العلمي في بعض الأحيان تأثير من تفرغوا للعلم. وقد تعرف الأفارقة على كثير من التجار التواتيين الفقهاء ومن الأمثلة على ذلك: الشيخ محمد فتحا ابن أبي محمد الأمريني التواتي[١٩] (ت١٠٠٨هـ/١٦٠٠م), الذي دَرَسَ في فاس وتضلع في مختلف العلوم مما أهله لتولي منصب القضاء, فدعاه الملك السعدي أحمد المنصور بعد احتلاله لتوات ليكون قاضيًا عليها لكنه رفض العرض بعد أن قال لرسول المنصور: "...لأن يحاسبني الله على ألف قنطار, أيسر علي من أن يسألني عن قضية فاصلة بين اثنين..."،[٢٠] وفضل ممارسة التجارة التي كانت ترد عليه من بلاد السودان.

كما أن بعض العلماء التواتيين مارسوا التجارة انطلاقًا من الحاجة لتأمين مكاسب ونفقات الزوايا ومدارس العلم التي قاموا بإنشائها, ونذكر منهم في هذا الصدد: الشيخ سيدي علي بن حنيني(ت ١١١٥هـ/١٧٠٣م) صاحب الزاوية المشهورة بزاقلوا, الذي كان يملك قافلة وصل تعدادها تسعمائة جمل تتاجر في بلاد السودان،[٢١] وكانت أرباحها تنفق على طلبة الزاوية وعابري السبيل في توات وغيرها, وكان تأثير التجار الفقهاء كبيرًا؛ فهم سفراء لتوات في أفريقيا, وبفضل معاملتهم وطريقتهم المشبعة بالروح الإسلامية حازوا إعجاب وثقة الإنسان الإفريقي فراح هذا الأخير يقلدهم في سلوكهم المستمد من تعاليم الإسلام الحنيف, مما كان له دور في انتشار الإسلام, والطرق الصوفية, كما أسهموا في انتقال الكثير من العادات والتقاليد بين القطرين.

ركب الحجيج

كانت توات إحدى المحطات الرئيسية لحجيج بلاد السودان الغربي, وشكل الحج فرصة سنوية مناسبة للكثير من الأفارقة لزيارة المنطقة والالتقاء بالعلماء والطلبة, وتسجل الكثير من المصادر التاريخية رحلات الحجيج التي قام بها الأفارقة عبر توات, ومنها تلك الرحلة الشهيرة للملك كنكن موسى الذي مر بها في طريقه إلى الحج سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م, وأوردت معها كثيرًا من الأخبار والأساطير عن تلك الرحلة وما جرى خلالها من أحداث؛ من ذلك ما ذكره محمود كعت من أن زوجته (أَنَارِ كُنْتِ) تمنت البحر بالقرب من توات فعمل لها حفرة كبيرة وأفرغ مياه القرب فيها لتستحم, وكان يبني في كل موضعًا ينزل فيه مسجدًا،[٢٢] وبغض النظر عن مدى صدق هذه الروايات من عدمه، إلا أنه من دون شك, كان لرحلة أول ملوك السودان إلى الحج أثر كبير في توطيد العلاقة بين توات والسودان الغربي.

كما ضمت قوافل الحجيج كثيرًا من العلماء والفقهاء الأفارقة ممن كانت لهم إسهامات وآثار بالمنطقة من دون شك, نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الفقيهين الشيخ أحمد بن عبد العزيز القوراري،[٢٣] والشيخ محمد أبن الشيخ أحمد بابا التمبكتي, اللذان حجا رفقة الباشا علي بن عبد القادر (ت١٠٤٢هـ/١٦٣٢م)[٢٤] بعدما أراد الحج سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م, وكان معه ثمانين رجلاً, وفي توات لحق به القائد الفلالي بن عيسى الرحماني البربوشي وأصحابه, وأرادوا قتله, لكنه استنجد بالفقيهين المذكورين فتركوه لحرمتهما

دورية إلكترونية . مُحكّمة . ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ومكانتهما, بعد أن منعوه الحج وقتلوا عددًا كبير من أصحابه, أما الفقيهان فقد واصلا طريقهما إلى الحج.[٢٥]

ومن العلماء الذين زاروا توات في مواسم الحج: الشيخ الحاج أبو بكر بن الحاج عيسى بن أبي هريرة الغلاوي (ت.١١٤٦هـ/١٧٣٣م), حج عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م رفقة الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي,[٢٦] كما حج سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م[٢٧] الشيخ أبو بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي (ت.١١٩٩هـ/١٧٨٥م), أتى معه من الحج بخزانة نفيسة من الكتب,[٢٨] ومن دون شك نَسَخَ أو أسْتُنْسِخَ البعض منها في توات, وممن حج من الفقهاء الشيخ الحاج البشير بن أبي بكر بن الطالب محمد البرتلي (ت.١٢١٤هـ/١٧٩٩م), حج سنة ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م وله رحلة حول ذلك؛ يذكر فيها مراحل الطريق من توات إلى الحج.[٢٩]

وكان للحجاج الأفارقة أماكن محددة يأتون إليها داخل توات في أوقات معلومة من السنة, وهناك يلتقون بالطلبة والعلماء من الإقليم الذين يبقون في انتظارهم, وعندها يتم التبادل العلمي والإجازات والمخطوطات, وأهم مراكز الالتقاء: زاوية الشيخ سيدي علي بن حنيني بزاقلو, زاوية كنته, زاوية الركب النبوي بأقبلي بمنطقة تيدكلت,[٣٠] وتسابيت, وزاوية عبد الله بن طمطم بأوقروت,[٣١] لمن اختاروا الحج عبر الطريق الشمالي.

تنقل السكان

كان لتنقل السكان الدائم بين توات والسودان الغربي أثر بارز ودور كبير في نسج العلاقة العلمية بينهما, وبحكم الطبيعة الصحراوية للمنطقتين كان التنقل السمة الغالبة لدى كثير من السكان, وتذكر المصادر التاريخية الكثير من الأمثلة لهذا التنقل: منها ما ذكره ابن بطوطة أثناء خروجه من بلاد السودان عائدًا إلى المغرب أنه خرج بصحبة أناس كثيرون من بينهم جعفر التواتي, ويصفه: أنه من الفضلاء,[٣٢] وفي الجهة المعاكسة يذكر السعدي في "تاريخ السودان": أنه تخلف بتوات عدد كبير من أصحاب السلطان كنكن موسى أثناء رحلته إلى الحج لوجع أصابهم في أرجلهم, واستوطنوا هناك[٣٣], كما كانت تمبكتو وكثيرا من المدن الإفريقية الأخرى غاصةً بالتواتيين,[٣٤] وفي هذا المقام يذكر السعدي في "تاريخ السودان"، وابن بابير الأرواني في"السعادة الأبدية"، أنه كان في تمبكتو وحدها مقبرة ضمت خمسين تواتيًا كلهم من الفقهاء والعباد,[٣٥] ولم يقتصر التوافد البشري على الأفراد, بل شمل قبائل بأكملها توزعت بين المنطقتين حتى ليجد الدارسون والباحثون صعوبتا في تحديد الانتماء الجغرافي لها, هل هي من توات أم من السودان الغربي, وتعد كل من قبيلة (كنته) وقبيلة (فولان) مثال للتمازج بين المنطقتين.

الطرق الصوفية

لعبت الطرق الصوفية دورًا كبيرًا في دعم العلاقة بين توات وأفريقيا وشكلت رباطًا روحيًا جمع المنطقتين على مر الزمن, وكانت توات بمثابة البوابة التي مرت منها هذه الطرق لأفريقيا وفي مقدمتها الطريقة القادرية, حيث عمل كل من المغيلي والشيخ أحمد البكاي على نشرها في أفريقيا, ثم جاء من بعدهما الشيخ عمر الشيخ الكنتي وواصل رسالة والده وشيخه. ولم يساهم التواتيون في نشر الطرق الصوفية في أفريقيا فحسب, بل أدلوا بدلوهم في تأسيس البعض منها: كالطريقة الرقانية التي أسسها الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني (ت.١٢٠٧هـ/١٧٩٣م), وكان لها انتشار واسع في إفريقيا خاصة في (ولاته) وضواحيها, والفضل في ذلك يعود للشيخ مولاي زيدان التواتي (ت.١٢٠٢هـ/١٧٨٨م), وكان لها أتباع كثيرون هناك منهم: محمد بن عبد الله البرتلي,[٣٦] أما الطريقة الحمالية,[٣٧] التي أسسها الشيخ حمى الله وحملت اسمه ودعت لتجديد الطريقة التجانية وإصلاحها, وكان لها انتشار واسع في حوض السنغال وعدة مناطق أفريقية, فقد قامت في الحقيقة بناء على تعاليم شيخ من توات؛ يسمى سيدي محمد بن أحمد بن عبد الله الشهير بالشريف مولاي الأخضر وكان يدرس التيجانية في السودان الغربي,[٣٨] هذه بعض الأمثلة عن وسائل الاتصال وطرق انتقال العلماء بين توات وأفريقيا.

تنقل علماء توات لأفريقيا خلال القرن ١٢هـ/١٨م

تنقل الكثير من العلماء التواتيين خلال القرن الثاني عشر الهجري, إلى أفريقيا لطلب العلم أو بغيت التدريس هناك, وقلما تجد عالما في توات لم يقوم بزيارة لبلاد السودان خاصة للمراكز الحضارية التي تعدت شهرتها الأفاق: كتمبكتو, أروان, شنقيط, ولاته.. وغيرها, لما اشتهرت به من رخاء اقتصادي ومكانة علمية, وكان لهذا التنقل دور كبير في تطور وازدهار الحياة العلمية بتوات, كما ساهم في إمداد هذه المناطق بمختلف العلوم والمنتجات الفكرية للتواتيين.

ومن الأمثلة على ذلك: الشيخين عمر بن محمد بن المصطفى بن أحمد الرقادي الكنتي (ت. ١١٥٧هـ/١٧٤٤م), الذي كان كثير التردد على بلاد التكرور لوجود عشيرته هناك. وأبي زيد عبد الرحمان بن عمر التنيلاني (ت.١١٨٩هـ/١٧٧٥م) الذي زارها مرتين؛ كانت الأولى مع الشيخ عمر بن محمد الكنتي وأغلب الظن أنها كانت في منتصف القرن الثاني عشر[٣٩] دامت شهرًا كاملاً وقد وصف لنا أجزاء منها في فهرسته.[٤٠] حيث يذكر أنه زار خلالها عدة مناطق مثل تاودني التي أقام بها مدة عند عشيرة الكنتي مرض خلالها بسبب صعوبة هوائها حسب قوله,[٤١] ليقرر بعدها مغادرتها للتوجه لقرية لمبروك,[٤٢] لكن رفيقه الكنتي ألح عليه للبقاء بجانبه في تاودني, فأجابه مكرها, ثم تنقل بعدها لمدينة أروان أين بقى هناك في حسن عيش ومذاكرة وقراءة حسب قوله والتقى خلالها بالشيخ أبو العباس احمد بن صالح السوقي التكروري,[٤٣] الذي قال عنه أنه كان عالمًا ملازمًا للتدريس أغالب أوقاته لكثرة طلبته, لكن رغم ذلك فرح به وخصص له بعضا من وقته عند القائلة, فقرأ عليه "الخزرجية" في علم العروض.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ويصف لنا التنيلاني طريقته في التدريس حيث يقول: أنه كان يستمر في تعليم الطلبة طول النهار لا يعود لمنزله إلا بعد العشاء بساعات, وكان يدرس بأربع لغات وهي: العربية, الدارجة, لغة الطوارق, واللغة التكرورية, كما كان حليمًا صبورًا على جفوة أهل البادية وقلة أدبهم معه لأنهم أكثر طلبته, فبعضهم يجلس متكأ على شقه والأخر مادًا لرجليه وذاك متكأً على جدار, لكن رغم ذلك كان يداعبهم ويضحك معهم ويأتيه العوام منهم فيقطع التدريس ويخرج إليهم ويقضي حوائجهم, ويضرب لنا التنيلاني مثالاً على حسن خلقه ولباقته في التدريس؛ من أنه كان يومًا في مجلسه فمر صبي يمسك قردًا . ولم يكن التنيلاني رآه من قبل . فآثار انتباهه فلما رآه الشيخ السوقي طلب من الصبي صاحب القرد المجيء وقطع الدرس وتركه يشبع فضوله من روئيت القرد, وهنا يقول التنيلاني أنه خجل من تصرفه هذا, ومن أروان توجه الأخير لقرية لمبروك لكنه ما لبث فيها إلا قليلاً ليعود بعدها لمدينة أروان ثانيةً التي يبدوا أنها أعجبته, ليعود منها إلى توات بعد ما ترك صديقه وشيخه الكنتي هناك.

أما رحلته الثانية، فقد جاءت بعد الأولى بسنوات ولم يحدد تاريخها ولا مع من تمت, غير ذكره أنه زار أثناها مدينة اروان التقي بها ثانية بشيخه أبو العباس سيدي احمد بن صالح السوقي التكروري الذي استقبله أحسن استقبال وضيفه بكبش, أكمل خلالها عليه دراسة "الخزرجية" وقرأ عليه "ألفية العراقي" في علوم الحديث حتى بلغ النصف تقريبا, لينتقل بعدها إلى تمبكتو التي بقى بها نيفا وعشرون يوما،[٤٤] ثم عاد لأروان وقبل مغادرتها إستجاز الشيخ أبو العباس السوقي فأجازه.

أما رفيقه الكنتي الذي صاحبه في الرحلة الأولى وكان دائم التردد على بلاد التكرور, فإلى جانب الطابع العائلي لتلك الزيارات التي كان يقوم بها لبلاد التكرور كان يقوم بأنشطة تعليمية, لا تختلف كثير عن دور الوسيط بين علماء توات وعلماء تلك الجهة, وهو من كان يرغب العلماء في توات لزيارة تلك المناطق, وفي هذا الصدد يذكر التنيلاني: أنه هو من قدمه للشيخ أحمد بن صالح السوقي, كما أن المدة التي قضاها معه في أروان أغلبها مضت في النقاش والمذاكرة.[٤٥]

ومن علماء القرن الثاني عشر الهجري, الذين تنقلوا إلى بلاد التكرور وكان لهم دور علمي هناك: الشيخ أبي الأنوار بن عبد الكريم التنيلاني (ت. ١١٦٨هـ/١٧٥٥م), الذي كان تاجراً للتمور, وأثناء تواجده بأرض الأزواد اشتغل بالتدريس إلى جانب تسيير أموره التجارية, وإليه يعود الفضل في تأسيس حاضرة لمبروك الموجودة شمال مالي وهذا رفقة شيوخ كنته بالأزواد: كالشيخ الحاج أحمد بن أبي بكر والشيخ المحجوبي وذلك سنة ١١٢٥هـ/١٧١٣م.[٤٦] ونفس الدور قام به ابن بنته وخليفته على الزاوية التي أسسها الشيخ مولاي هيبة بن مولاي محمد(ت ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م)[٤٧] الذي انتقل إلى بلاد التكرور, وزار منطقة والن وأسس بها مسجدًا وقصبة كان يقصدها التجار وعابري السبيل من كل مكان بوصفها منطقة التقاء تجاري بين الأزواد وتوات, كما زار اكدز وتيكدة, وقبل عودته لتوات اشترى كتب ومخطوطات عديدة لإثراء مكتبته بالزاوية الأم في تيديكلت.

أما مولاي زيدان بن محمد بن مولاي أحمد بن سيدي حم (ت. ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م) فقد زار بلاد التكرور أربع مرات حسب البرتلي وكان رسول الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني لتلك المناطق وعمل على نشر طريقته هناك, ومن الأماكن التي كان ينزل بها ولاته؛ أين كان الناس يأتونه في الصباح والمساء للتبرك به والاستفادة منه ويقول عنه البرتلي: أنه أثر في الناس أيما تأثير وأعطي قدرة في الكلام فلا يناظره أحد إلا أفحمه وقد قصده في سبعين حاجة بين الدنيا والآخرة قضى الله له جميع حوائج الدنيا وهو يرجوه قضاء حوائج الآخرة.[٤٨]

ومن التواتيين في ولاته الطالب سيدي أحمد التواتي بن محمد بن عمر من بني علي بن عبد الله (ت١١٣٨هـ/١٧٢٦م), يقول عنه البرتلي: أنه كان أحد الأولياء العارفين مداومًا على الأوراد مشتغلاً بالتصوف له خزانة مليئة بكتبه وغيرها توفي عام ١١٣٨هـ/١٧٢٦م وقيل عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م.[٤٩] كما تنقل الشيخ اللغوي محمد بن اب المزمري(ت. ١١٦٠هـ/١٧٤٧م) إلى بلاد السودان, وزار تمبكتو وأروان ودرس في الأخيرة علم العروض والقوافي ومن تلامذته هناك الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن صالح السوقي الأرواني،[٥٠] ولابن اب قصيدة[٥١] قالها عن أروان التي زارها ولم يلقى هناك الترحيب اللازم ولا الاهتمام عكس التجار وأصحاب المال مع صدود الناس عن العلماء وإقبالهم على التجار, والقصيدة تعطينا صورة واضحة عن ازدهار التجارة في المدينة وفي ربوع السودان وخاصة تجارة الذهب.[٥٢]

ومن العلماء الذين انتقلوا إلى أفريقيا الشيخ علي بن أحمد بن علي بن أحمد الرقادي (ت. ١١٩٤هـ/١٧٨٠م), والذي قال عنه البرتلي: أنه كان من الصالحين وأهل العلم صاحب نفع وبركه كثير التنقل بين زاوية أجداده في توات وبلاد السودان ولقد تأثر به عدد كبير من التكروريين.[٥٣] كما تنقل لبلاد التكرور الشيخ محمد بالعالم الزجلاوي (ت. ١٢١٢هـ /١٧٩٨م) ومارس التدريس والإفتاء هناك, والشيخين محمد بن لمبروك البداوي (ت. ١١٩٨هـ/١٧٨٤م) والشيخ الإداوعلي (ت. قبل١١٩٨هـ/١٧٨٤م) اللذان تنقلا أيضًا لتمبكتو، وهناك توفي الإداو علي وصلى عليه رفيقه البداوي.[٥٤]

ولم يكتف التواتيون في السودان الغربي خلال تلك الفترة بالتدريس وحده بل ساهموا في بناء المراكز العلمية والمساجد, ففي عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م بنا التواتيون مسجد في تمبكتو ظل يعرف باسمهم[٥٥] من أئمته الفقيه محمود بن محمود الزغوي التنبكتي،[٥٦] كما كانت للكنتيين مدارس وزوايا: كزاوية أبناء المصطفى وزاوية لمخاتير بازواد مالي, زاوية أهل سيدي علواته بمدينة تمبكتو, زاوية آل بابا حمد بن عابدين بواقادوقو ببوركينافاسو...وغيرها.[٥٧]

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أما من الجهة المقابلة، فقد قدم أيضًا الكثير من العلماء والطلبة الأفارقة للدراسة بتوات, وكانت زوايا تنيلان وزاوية كنته وتمنطيط...إلخ تعج بهم. ومن الأمثلة على ذلك: الشيخ عبد الله الفلاني الذي قدم إلى تنيلان من بلاد التكرور في رحلة لطلب العلم ودرس على يد الشيخ عبد الرحمن بن عمر التواتي التنلاني، ومكث عنده شهرين وست ليالي، وقام بتدوين تلك الرحلة التي يصور لنا من خلالها كيفية قدومه لتوات وبعضًا من الأحوال الاقتصادية بها، كما يتحدث عن إجازة الشيخ عبد الرحمان بن عمر له،[٥٨] ومن الذين قدموا لتوات من أفريقيا واستقروا بها الشيخ سيدي محمد الإداوعلي (ت. قبل ١١٩٨هـ/١٧٨٤م) نسبة لقبيلة (إدوعل) كبرى قبائل شنقيط، ولد في شنقيط ودرس بها، ثم خرج منها على رأس وفد من الحجيج من مختلف المناطق الإفريقية يريد البقاع المقدسة، ولما وصل إلى منطقة عين صالح بتوات توقف عن المسير وترك القافلة وعاد لزاوية الركب النبوي بأقبلي،[٥٩] وهناك استقبله شيخها أبي نعامة وطلب منه البقاء معه لكن الإداوعلي فضل الانتقال لتوات وبالضبط لتمنطيط عند الشيخ البكري بن عبد الكريم الذي استقبله وبقي عنده دارسًا ومدرسًا فذاع صيته في توات وطلبه أعيان عدد من القصور فاختار قصر أعباني بفنوغيل استقر هناك وأسس زاوية ومدرسة, لكن شده الحنين في آخر عمره لأفريقيا ثانيةً فغادر توات في آخر أيام عمره إلى تمبكتو وتزوج هناك لتوافي المنية بها أواخر القرن ١٢هـ قبل سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م بعدما ترك أبناءه بتوات في قصر أعباني بمقاطعة فنوغيل, ولم يكن وحده من العائلة الذي تنقل إلى تمبكتو بل ابنه إبراهيم ويحتفظ ديوان الشاعر الإداوعلي بقصيدة شعرية أرسلها لولده في بلاد التكرور بعدما تركه ضريرًا في توات, وبعد وصول القصيدة عاد أبنه لتوات وتوفي بها وقبره يزار في قصر أعباني.

ولشدة تعلق الأفارقة بتوات وكثرة ترددهم عليها انتسب البعض منهم إليها حتى صاروا لا يعرفون إلا (بالتواتي) مثل: الحاج احمد بن الحاج الأمين[٦٠] الغلاوي الملقب بالتواتي كان من كبار العلماء والصالحين حج مرات عديد إلى بيت الله الحرام, وكان شيخ الركب من السودان إلى توات ليخلفه أبي نعامة من توات إلى الحج, عرف بكرمه وزهده وهمته, من مؤلفاته: كتاب سماه "كشف الغمة في نفع الأمة" توفي عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م بفزان في ليبيا أثناء عودته من الحج.[٦١]

تأثر الأفارقة بتوات وعلمائها

تأثر الأفارقة بعلماء وعلوم التواتيين وانكبوا على كثير من مؤلفاتهم ينسخونها ويدرسونها وحتى شارحين لها أحيانًا, كما كانت توات دومًا حاضرة في مؤلفاتهم قبل وأثناء وبعد القرن الثاني عشر الهجري, واقترن دائمًا وصفها ببلاد العلم والأمان والطمأنينة فقلما تجد كتابًا أو مؤلفًا في الأغراض المختلفة لا يأتي على ذكرها ومن الأمثلة على ذلك: كتاب "المعين المبارك على منظومة ابن أب المزمري للمقدمة الأجرمية"[٦٢] للشيخ المختار بن الطالب عبد الله الشنقيطي الولاتي وهو شرح على مؤلف بن أب المذكور.

ومن بين العلماء الأفارقة الذين تأثروا كثيرا بعلماء توات خلال القرن ١٢هـ/١٨م أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي (ت.١٢٠٢هـ) صاحب المؤلف المشهور"فتح الشكور في معرفة علماء التكرور" والذي أخذ ورد الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني (ت. ١٢٠٧هـ/١٧٩٣م)،[٦٣] وكان تلميذه عن طريق الشيخ مولاي زيدان التواتي (ت. ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م) الذي كان الوسيط بين الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني وإتباعه في أفريقيا, ولم تذكر المصادر أن كان البرتلي تنقل إلى توات للأخذ عن شيخه مولاي عبد المالك أم لا, بالرغم من وصفه الدقيق للزاوية برقان, كما بلغ من شدة احترامه وتأثره به تخصيص موضعًا وترجمة له وللشيخ مولاي زيدان في كتابه السالف الذكر رغم أنهما ليسا من بلاد التكرور،[٦٤] أما الشيخ الفقيه الطالب الأمين بن الطالب الحرشي (ت. ١١٦٦هـ/١٧٥٣م) فقد أخذ حكم ابن عطاء الله في التصوف "الحكم العطائية" على يد الشيخ أحمد بن عمر التواتي (ت. ١١٣٨هـ/١٧٢٥م)، وأخذ عنه الورد والطريقة في التصوف،[٦٥] كما أخذ الشيخ الطالب محمد بن الطالب عمر الخطاط بن محمد نض البرتلي الولاتي (ت. ١١٦٥هـ/١٧٥٢م) الورد الغازي الناصري, ومبادئ التصوف على يد الشيخ احمد بن محمد عمر بن علي بن عبد الله التسابيتي[٦٦] التواتي،[٦٧] وكذلك الشيخ حمى الله مؤسس الطريقة الصوفية الحمالية أخذ تعاليم الطريقة على يد الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله الشهير بالشريف مولاي الأخضر الذي كان يدرس التيجانية في السودان الغربي.[٦٨]

أما من حيث التأليف، فقد حازت توات على اهتمام الأفارقة وراحوا يكتبون حولها مبدين إعجابهم واحترامهم لها, ومن الأمثلة على ذلك: ما كتبه الحاج البشير بن الحاج أبي بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي الذي عرف بحبه للنبي وقام بالحج عام ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م, وبعد عودته كتب رحلة يذكر فيها مراحل طريق الحج من بلاد توات إلى مكة،[٦٩] أما الشيخ محمد بلان بن ختار فله مؤلف بعنوان "رسالة بأخبار تودن وأخبار تحركات الغزوات بين هقار وتوات وتندوف وما جرى ذلك"،[٧٠] ويضم أخبار لبعض الوقائع بين توات والسودان الغربي كهجمات اللصوص وقطاع الطرق وغيرها.

خاتمة

تناولت الصفحات السابقة جزء يسير مما أسهم به علماء توات في نهضة وتطور السودان الغربي خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، وهو من دون شك إضافة لما بدأه الكثير من العلماء التواتيين منذ أزمنة غابرة، وهو مستمر إلى اليوم في عطاء وتبادل حضاري قل نظيره، وهو بحاجة للمؤرخين والباحثين للكشف عنه وإبرازه.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) يشمل حاليا ولاية ادرار (محافظة) في الجنوب الغربي للجزائر بجميع دوائرها باستثناء دائرة برج باجي المختار، بالإضافة إلى دائرة عين صالح وإينغر، التابعتين لولاية تمنراست.

(٢) عبد الرحمان بن عبد الله السعدي: **تاريخ السودان**، طبعة هوداس، باريس، ١٩٨١م، ص٠٧.

(٣) **منسا موسى أبي بكر**، تولى مقاليد مملكة مالي سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، عُرفت المملكة في عهده درجة عالية من التوسع والازدهار والتقدم، قام برحلته الشهيرة إلى الحج عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م، توفي سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م. للمزيد ينظر: عبد الرحمن بن عبد الله السعدي: **تاريخ السودان**، طبع هوداس، باريس، ١٩٨١م، ص٧ وما بعدها. محمود كعت: **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، نشر هوداس، باريس، ١٩٦٤، ص ٣٢ وما بعدها. تذكر بعض المصادر أنه توفي سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٥م أنظر:

Robert cornevin: **Histoire de l'Afrique**, Paris, 1962.P.352.

(٤) أبو عبد الله الأنصاري: **فهرست الرصاع**، تحقيق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، بدون تاريخ، ص ١٢٧.

(٥) محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: **درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام**: مخطوط، خزانة كوسام، أدرار، الجزائر، ص ص٨ ، ٩.

(٦) مولاي أحمد الطاهري الإدريسي: **نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات**، مخطوط، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر، ص١٢.

(٧) Mandeville G: **L' Algérie méridionale et le Touat**, paris, 1898, p8.

(٨) Reclus Élisée: **Nouvelle Géographie universelle**, T.XI (L'Afrique septentrionale), Paris, 1886, P. 845.

(٩) الأطلس العالمي: **المعهد التربوي الوطني والديوان الوطني للمطبوعات المدرسية**، الجزائر، بدون تاريخ، ص١٨ ، ١٩.

(١٠) عليق ريحة نابت: **قصر ملوكة دراسة تاريخية وأثرية**، رسالة ماجستير، قسم الآثار، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر ٢٠٠١ - ٢٠٠٢، ص ١٥.

(١١) Bernard Saffroy: **chronique du Touat**, centre saharienne, Ghardaïa, Algérie, 1994. p 01.

(١٢) مبارك جعفري: **العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن ١٢ هـ** دار السبيل للنشر والتوزيع، بن عكنون الجزائر، ٢٠٠٩، ص ٧٥.

(١٣) الإصطخري أبو إسحاق إبراهيم: **مسالك الممالك**، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٢٧م، ص ٤٠.

(١٤) الحسن ابن محمد الوزان (ليون الإفريقي): **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حاجي، ومحمد الأخضر، جزآن، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.ج٢/ص ١٣٣.

(١٥) Robert cornevin: Op. Cit, 1962, P.357.

(١٦) نياني ج. ت وآخرون: **تاريخ إفريقيا العام**، المجلد الرابع (إفريقيا من ق ١٢ إلى ق ١٦) اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٨٨، ص ٦٧١.

(١٧) حسن الوزان، المصدر السابق، ج٢/ ص ١٦٧.

(١٨) مولاي أحمد الطاهري الإدريسي: المخطوط السابق، ص ٣٤.

(١٩) محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: **جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني**، مخطوط، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر. ص ٥٠.

(٢٠) نفسه، ص ٥١.

(٢١) محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: **درة الأقلام**، المخطوط السابق، ص ٤٩.

(٢٢) محمود كعت : المصدر السابق، ص ٣٤ وما بعدها.

(٢٣) نسبة إلى منطقة (تيميمون)

(٢٤) **الباشا علي بن عبد القادر**: تولى الحكم في تمبكتو بعد الباشا إبراهيم الجزّاريّ سنة ١٠٣٨ هـ إلى غاية سنة ١٠٤٢هـ، تميز عهده بكثرة الاضطرابات والنزاعات، مات مقتولاً سنة ١٠٤٢هـ ودفن بمقبرة أبي القاسم التواتي في تمبكت. للمزيد انظر ترجمته: عبد الرحمان السعدي: **تاريخ السودان**، المصدر السابق، ص ٢٢٨ وما بعدها، مجهول، **تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان**، نشر هوداس، باريس، ١٨٩٩م، ص ٣٤.

(٢٥) أنظر: السعدي، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٢٦) البرتلي الولاتي (أبي عبد الله): **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م، ص ٧٦.

(٢٧) في سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م توفي شيخ ركب الحجيج من بلاد السودان إلى توات الشيخ الحاج أحمد بن الحاج الأمين الملقب بالتواتي الغلاوي، أثناء عودته من الحج، ودفن بفزان بليبيا، وتوفي معه في نفس الرحلة والمكان عمر بن محمد المصطفى بن أحمد الرقادي الكنتي التواتي، وكان بصحبته. أنظر: عبد الرحمان بن عمر التنيلاني: **تراجم بعض علماء ومشايخ الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنيلاني**،(فهرست التنلاني)، مخطوط، خزانة تنلان، ادرار، الجزائر، ص ٣٧. وأضاف هذا الأخير تحديد للمكان بالضبط وهو قرية (زلة) بفزان، مما يوحي أن قافلة الحجيج في تلك السنة قد تعرضت، لمكروه ما، لم تذكره المصادر، أو ربما كان تزامن وفات الشيخين محض صدفة.

(٢٨) البرتلي، المصدر السابق، ص ٧٨.

(٢٩) نفسه، ص ٨٣.

(٣٠) عبد الرحمان بن عمر التنيلاني: المخطوط السابق، ص ٥٤.

(٣١) وقد سلكه الرحالة أبي سالم العياشي سنة ١٠٧٢هـ/١٦٦١م ينظر: عبد الله بن محمد العياشي: **الرحلة العياشية ١٦٦١م . ١٦٦٣م**، تحقيق د سعيد الفاضلي ود سليمان القرشي، جزآن، ط١، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٦، ج١، ص ٧٩ وما بعدها.

(٣٢) ابن بطوطة: **تحفة النظار في غرب الأمصار وعجائب الأسفار**، ط١، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م، ص٤٠٧.

(٣٣) السعدي، **تاريخ السودان**، المصدر السابق، ص٠٧.

(٣٤) نياني وآخرون، المرجع السابق، ص ١٩٤.

(٣٥) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص ٦٠. أحمد ابن بابير الأرواني، **السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو الهبة**، مخطوط، المكتبة الزيدانية، نيامي، النيجر، ص ٨٦.

(٣٦) البرتلي: المصدر السابق، ص ٩٧.

(٣٧) **الطريقة الحمالية**: فرع من فروع الطريقة التجانية تنسب للشيخ حمى الله (١٨٣٣م . ١٩٤٣م) الذي أراد العودة بالطريقة إلى قواعدها التي أرساها المؤسس أحمد التيجاني، انتشرت على طول نهر السنغال ووصلت إلى النيجر وموريتانيا. للمزيد أنظر عبد الله عبد الرزاق إبراهيم : **الطرق الصوفية في أفريقيا ودورها في نشر الإسلام في أفريقيا**، ندوة الإسلام والمسلمون في أفريقيا: تنظيم جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالتعاون مع معهد الدراسات الإفريقية التابع لجامعة القاهرة والجمعية المصرية الأفريقية للعلوم السياسية، المنعقدة بتاريخ ١٨ - ١٩يوليو ١٩٩٨م، طرابلس، ليبيا، ص ٠١ وما بعدها.

(٣٨) نفسه، ص ١١.

(٣٩) لأنه ذكر أن شيخه الكنتي بعد عودته ذهب إلى الحج، وتوفي في طريق عودته سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م.

(٤٠) عبد الرحمان بن عمر: المخطوط السابق، ص ٣٦ وما بعدها.

(٤١) نفسه، ص ٣٧.

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٤٢) أروان , تاودني , المبروك مدن تقع شمال مالي حاليًا.
(٤٣) نفسه, ص٤٣.
(٤٤) نفسه , ص ٤٤.
(٤٥) نفسه, ص ٣٧.
(٤٦) محمد الصالح حوتيه: **توات والأزواد**, جزآن, دار الكتاب العربي, الجزائر, ٢٠٠٧م, ص ٢٣٨,
(٤٧) نفسه, ج١, ص ص٢٤٠, ٢٤١.
(٤٨) البرتلي, المصدر السابق, ص ١٠٠.
(٤٩) نفسه, ص ٤٣.
(٥٠) عبد الرحمان بن عمر: المخطوط السابق, ص ٤٧.
(٥١) يقول في القصيدة:

وقائلة لي يا بن ابّ محمد ** أرى الناس طُرّاً هاهنا فيك زُهّدا
وبعضُ يكاد إن ذهبت لتبتغي ** مصافحة أن لا يمُدّ لك اليدا
فو الله لا أدري أذلك منهم ** تجاهل أو جهل بقدرك قد بدا
فقلت جهلت الأمر لو جئت تاجرا ** أسوق حمالة وأبرز عسجدا

(٥٢) أحمد بالصافي جعفري: **محمد بن ابّ المزمري ١١٦٠هـ حياته وأثاره**, ط١, دار الكتاب العربي, القبة الجزائر, ٢٠٠٤, ص٦٦, ٦٧.
(٥٣) البرتلي: المصدر السابق, ص٢٠٠, ٢٠١.
(٥٤) أحمد جعفري: **الحركة الأدبية في منطقة توات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين**, رسالة دكتوراه في الأدب, إشراف الدكتور محمد زمري, جامعة تلمسان, ٢٠٠٦/٢٠٠٧, ص ٣٢١.
(٥٥) أحمد بن بابير الأرواني: المخطوط السبق, ص١٨.
(٥٦) البرتلي, المصدر السابق, ص ١١٠.
(٥٧) عمر باحمد دمه الكنتي: **الزوايا الكنتية أعلامًا وجغرافية**, بدون دار للنشر, النيجر, ٢٠٠٥, ص ٤٤ وما بعدها.
(٥٨) جاءت الرحلة قصيرة في خمس صفحات, توجد منها نسخة بخزانة مولاي سليمان بن علي، ادرار.
(٥٩) أحمد بالصافي جعفري: **رجال في الذاكرة** (الشيخ سيدي محمد الإداو علي ق١٢ حياته وشعره), دار الغرب للنشر والتوزيع, وهران, الجزائر, ٢٠٠٨, ص ١٣ وما بعدها.
(٦٠) الأرجح أنه من علماء بلاد التكرور, انتسب إلى توات لكثرة تردده عليها وصار لا يعرف إلا بالتواتي.
(٦١) البرتلي: المصدر السابق ص٤٨ وما بعدها.
(٦٢) توجد نسختين من المؤلف في مركز أحمد بابا للتوثيق والمخطوطات بتمبكتو, تحت رقمي: (٤١٩٢,٥٣٨٩).
(٦٣) البرتلي: المصدر السابق, ص ٢١.
(٦٤) نفسه, ص ٢٠١ وما بعدها.
(٦٥) نفسه, ص ٦٦.
(٦٦) نسبة إلى تسابيت.
(٦٧) البرتلي: المصدر السابق, ص ١٢٧.
(٦٨) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: المرجع السابق, ص ١١.
(٦٩) البرتلي: المصدر السابق, ص٨٣.
(٧٠) المخطوط بمركز أحمد بابا للتوثيق, تحت رقم ٤٤١٩.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449